مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الإِنسَانِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الإنسان

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الإنسان

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ٤ ﴾

تناولت سورة الإنسان أطوار الإنسان الرئيسة، وانطلق البيان فيها بسؤال تقريري، يقرر به تبارك وتعالى أن أصل الإنسان لم يكن موجوداً قبل أن يخلق الله عَزَّ وجل آدم عليه السلام، فقال الله تبارك وتعالى ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ فإنه أتى على الإنسان زمن طويل لم يكن موجوداً في الحياة الدنيا. وقد أورد تبارك وتعالى الاستفتاح للبيان بصيغة السؤال التقريري، بما يستثير المتابعة، من خلال التشويق إلى معرفة ما بعده من بيان. وبالتالي أعطى حرف ﴿ هَلۡ ﴾ معنى قد. فجمع بين الاستفهام بالسؤال وبين التقرير والتحقيق. ومثاله اللغوي، هو القول: هل أعطيتك كذا. من باب تقرير العطاء.

ولإنسان هنا هو آدم عليه السلام، قاله ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى وغيره(١) لأن آدم عليه السلام هو أصل جنس الإنسان ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ ﴾ فقد أتى على آدم عليه السلام ﴿ حِينٞ ﴾ أي: وقت ﴿ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ ﴾ وهو الزمن الطويل. قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن دلالة ﴿ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ ﴾ طائفة الزمن الطويل الممتد. وقال أيضاً عن ﴿ هَلۡ ﴾ أنها بمعنى: قد. في الاستفهام خاصة(٢) وقيل: أربعون سنة، وكان مصوراً من طين، لم يُنفخ فيه الروح، هذا قول الجمهور. وقيل: أنه جميع الناس، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن جريج. فعلى هذا يكون الإنسان اسم جنس، ويكون ﴿ حِينٞ ﴾ زمان كونه نطفة، وعلقة، ومضغة(٣) فشملت دلالة الإنسان الوجهين معاً: خلق آدم عليه السلام، وأيضاً كل أحد من الناس بأنه

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٢٩/٢٣)

(٢) ابن هشام السيرة النبوية (٦٦٦/٤)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٢/٨)

لزمن طويل ﴿ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ لم يكن موجوداً في الحياة الدنيا، مما يبين عظيم السياق في القرآن الذي استوفى المعنيين من غير تعارض. ومن غير حاجة لبناء سياقين متعاقبين، أحدهما عن آدم عليه السلام، والآخر عن جنس الإنسان.

وفي هذا لفت انتباه عموم الْمُخَاطَبين، وشد انتباههم إلى التفكر في وجودهم. فإنها تبعث التأمل والتفكر في عظيم قدرة الله تعالى، والتي تستوجب الإيمان بكل ما أتى عنه عَزَّ وجل، والعمل بطاعته، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. ومن فوائد دقائق البيان الكريم أنه لم يُحدد هذا الحين من الدهر. ليستوفي جنس الإنسان عموماً، فكل أحد من الناس، ينطبق عليه ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ وفيه دعوة الإنسان إلى التفكر والتأمل في وجوده.

ثم يتدرج السياق إلى بيان شيئاً من أطوار حياة هذا الإنسان، بعد إثبات إيجاده بعد العدم. فقال تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ فإن أصل أطوار هذا الإنسان الذي لم يكن موجوداً، أنه كان نطفة من مني، تخرج من بين صُلب الرجل وترائب المرأة، وسُمّيّ نطفة لقلته، إذ هي قطرة صغيرة. فهو إيجاد له بعد العدم من تلك النطفة ﴿ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ ﴾ والأمشاج هي الأخلاط، أي: خليط مني الرجل والأنثى.

ثم أخبر تبارك وتعالى بالغاية من خلق هذا الإنسان. فقال عَزَّ وجل ﴿ نَّبۡتَلِيهِ ﴾ أي: لنختبر هذا الإنسان في طاعته وامتثاله لربه سبحانه وتعالى، حتى يكون الجزاء بما يناسب طاعته أو معصيته. فإذاً هناك غاية من خلق هذا الإنسان، وأن الله تعالى لم يخلقه عبثاً أبداً. فإذا أدرك الإنسان هذه الغاية من خالقه عَزَّ وجل استوجب عليه الطاعة والامتثال. ثم أخبر جَلَّ جلاله بعد ذلك بما زود به هذا الإنسان من الحواس التي تمكنه من سماع الحق، فجعل له سمعاً وبصراً، ليسمع ويرى آيات الله تعالى بسمعه وبصره، فقال تبارك وتعالى ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ فجعلنا لهذا الإنسان سمعاً يسمع به الأصوات، ومنها حجج الله تعالى، التي منها القرآن الكريم، وكذلك بصراً يبصر به الآيات الكونية. وبالتالي ليس له عذر في الكفر وعدم الإيمان والطاعة. بل أورد الله تعالى هاتين الحاستين بصيغة المبالغة ﴿ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ ليفيد كمال القدرة لهاتين الحاستين العظيمتين في إدراك ما تسمع وما ترى، بما ينتفي به العذر.

ومن دقائق فوائد ترتيب البيان: أن قَدَّم اللهُ تعالى الابتلاء ﴿ نَّبۡتَلِيهِ ﴾ على خلق السمع والبصر ﴿ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ وذلك لإظهار الهدف والغاية، بالقطع والتوقف عن مكونات أطوار

الخلق، من نطفة أمشاج، وخلق السمع والبصر. كما بدأ البيان الكريم من الله تعالى بضمير المتكلم ﴿إِنَّا﴾ الذي هو الله سبحانه وتعالى، وقد نسب عَزَّ وجل الخلق له جَلَّ شأنه، لإظهار الربوبية واستحقاق الألوهية والعبودية. وبضمير التفخيم والتبجيل والعظمة ﴿إِنَّا﴾ وكذلك تكرار الضمير في الفعل ﴿خَلَقْنَا﴾ وكذلك في الفعل ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ وفي الفعل ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ ليفيد تأكيد الإنعام بالخلق والإيجاد، والهدف، وجعل نعمة السمع والبصر امتناناً وتفضلاً منه هو عَزَّ وجل لا غيره تبارك وتعالى. وكذلك لفت الانتباه لكمال القدرة له جَلَّ في علاه. وإظهاره بالتعظيم والتفخيم والتبجيل له جَلَّ جلاله، وما يلزم له منكم إيها الناس من كمال التعظيم لربكم، وكمال الطاعة والاستجابة لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وفيه كذلك بيان كمال القوة والقدرة، وما يتبعها من القهر لكل من يعاند ويكابر، وأنهم مغلوبون على أمرهم وعنادهم، أفراداً وجماعات.

ثم يتدرج البيان لأفضال الله تعالى على هذا الإنسان، بما أنعم عليه بالوسائل التي تعينه على أمور التكليف من ربه عَزَّ وجل، وأن عليه أن يختار لنفسه الطاعة أو المعصية. فيقول جَلَّ شأنه ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ فإنا قد أظهرنا له بالبيان الواضح طريق الهدى، بالأدلة الكونية التي تحيط به، وبالنعم التي ينعم بها، ويتفيأ فيها، من السماء والأرض والجبال، والشمس والقمر، والليل والنهار، وغيرها مما يحسه ويراه ويسمعه، وبما جاء من الرسل عليهم السلام، وإنزال الكتب. وكذلك أنعم الله تبارك وتعالى على الإنسان بما فطره عليه، بدلالة قوله عَزَّ وجل ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: ما فطره الله تعالى عليه، كما ورد في سورة الروم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وهو الإسلام. فمعنى ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: الإسلام. قال مجاهد رحمه الله تعالى: الإسلام[1] والتي يبينها قوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يُولد على الفطرة)[2] أي: على الإسلام. بما يفيد ويبين أن الإنسان قد وُلِد وهو مفطور على الإسلام، دون تفاصيله، فقلبه وميوله لمنهج هذا الدين، فيجد في أوامره ونواهيه وتشريعه ما يطمئن إليه قلبه. ولذلك ورد في تكملة الحديث تأثير غيره عليه (فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه) بما يبين أن تأثير غيره عليه هو أمر حادث طارئ مخالف لِمَا فُطر عليه المولد، من تأثير الوالدين، وممن يُحيطون به، ويتعايش معهم. فإذا عُرِّف وعَرَف الإسلام أقبل عليه ما لم يكن هواه وشهواته قد سيطرت عليه، فآثرها على غيرها من الحق، ولم يُرد مفارقتها إلى ما أدرك في قرارة نفسه أنه الحق.

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٩٣/١٨)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٤٢٤/١) برقم (١٣٨٥)

وكذلك ما ورد في سورة الشمس، فقال تعالى ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾ فَعَرَّفَها وأفهمها ما يجعلها تدرك الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، حتى تتحمل مسؤولية ما يكون منها. فعليه أن يتحمل مسؤولية اختياره ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ فإما أن يكون من الشاكرين لربهم على هذا الإيجاد، وهذا الإنعام، فيطيع ويمتثل لله تعالى باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ منكراً لإنعام الله تعالى عليه، فيكفر بالرسل والكتب، والآيات والحجج. وبالتالي فإن عليه أن يتحمل مسؤولية اختياره، كما قال تعالى في سورة التكوير ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٩) ﴾ وكذلك قوله عَزَّ وجل في آخر هذه السورة ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فقد جعل الله تبارك وتعالى بحكمته للإنسان مشيئة من الاختيار، وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر، وهذه المشيئة تحت مشيئة الله تعالى، فلا يعني ذلك أن الإنسان منفرد بها، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذي منحها للإنسان بمشيئته، ويمنعها بمشيئته. فيصحح سبحانه وتعالى مفاهيم عباده، ويُعَلِّمهم ويعرفهم بعظيم سلطانه، حتى يعلموا بما يكون منهم، وما يجب عليهم، وأن ذلك لا يعني أنهم خارجين عن مشيئته جَلَّ جلاله. كما يصحح أفهام من حاد فهمه عن الصواب. وهذا من عظيم التدبير والحكمة والعدل من الله العزيز الحكيم.

وكما قال تعالى في سورة: فصلت ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ مما يبين أن الله تعالى لا يظلم عباده أبداً بغير ما اكتسبوا، بل يحب الطاعة والمطيع، ولذلك أنزل الكتب، وأرسل المرسلين، بل ويهدي من أناب إليه، بقبول عبده بعد تركه للمعصية، مهما كانت تلك المعصية في عظمتها. فالحمد لله رب العالمين. اللهم اهدينا وأصلحنا، وألهمنا الصواب.

ثم بعد أن ترك سبحانه وتعالى للإنسان اختيار أحد الطريقين: إما أن يكون شاكراً وما أن يكون كفورا، يحذره من طريق الكفر، واختيار هذا النهج. فقال تعالى ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾ إنا هيئنا وأعددنا ورتبنا للكافرين ﴿سَلَٰسِلَا۟ ﴾ وهي القيود التي هي من حِلَقِ الحديد ﴿وَأَغْلَٰلًا ﴾ وهو ما تُربط به الرقاب من حلق الحديد، حين تُجعل الأغلال في أعناقهم، وكذلك مع تلك الأغلال هناك عذاب جهنم ﴿وَسَعِيرًا ﴾ وهي النار العظيمة المتوقدة، الشديدة الاشتعال، والتي قد اشتد

لهيبها. مما يعني التحذير بهذا البيان من الكفر بما بينه لكم ربكم عَزَّ وجل عن مآل الكافرين وشدة عذابهم. وهذا من رحمة الله تعالى أن وضَّحَ لعباده ما يجب عليهم أن يبتعدوا عنه، حتى يكونوا من الفائزين في الدنيا والآخرة.

﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا
تَفۡجِيرٗا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا
۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ
ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ
لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ۝١٤ ﴾

بعد أن أخبر سبحانه وتعالى بما أسداه للإنسان من بيانه عَزَّ وجل لسبيل الهدى والخير، وأن الإنسان محاسب ومجازى على ما يختاره، ثم التحذير من اختار الكفر، فإنه يخبر جَلَّ جلاله بجزاء مَن اختار طريق الأبرار، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ إن الأبرار الذين هم أهل الصدق والإخلاص والطاعة لله تعالى ﴿ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ فرائحة المشروب الذي في الكأس كرائحة الكافور في الطيب. وسماهم بالأبرار، من البر الذي يفيد الصدق والاتباع، والمعبرة عن الإخلاص في الطاعة. فإن هؤلاء ﴿ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ ﴾ والكأس هو ما كان مملوء بالشراب. فإن كان فارغاً فليس بكأس. فعن الضحاك رحمه الله تعالى: كل كأس في القرآن فهو خمر. ومن فوائد الدلالات ما قاله السدي رحمه الله تعالى: أن الخمر والكأس عند العرب هو كل إناء فيه شراب، فإن لم يكن فيه شراب لم يكن كأساً، ولكنه يكون إناء[١] وقال أبو عبيدة رحمه الله تعالى: الكأس: هو الإناء بما فيه، والمعين: الماء الطاهر الجاري. وقال الزجاج رحمه الله تعالى: الكأس: الإناء الذي فيه الخمر. وتقع الكأس على كل إناء مع شرابه، فإن كان فارغاً فليس بكأس[٢]

ثم يبين سبحانه وتعالى ما يمازج هذا الكأس المملوء. فقال عَزَّ وجل ﴿كَانَ مِزَاجُهَا ﴾ أي: خالطها ومازجها ﴿ كَافُورًا ﴾ أي: أكمام الثمرة، والكافور الذي هو من الطيب[٣] فرائحة المشروب الذي في

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩/٥٣٠-٥٣١)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٢٩٣)
(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٤٣٦)

الكأس كرائحة الكافور في الطيب. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يعني في طيب رائحتها كالكافور. وقد قيل: إن الكافور اسم لعين ماء في الجنة[١] مما يبين أن شراب الجنة نعيم في طعمه، وفي كثرته، وفي رائحته وصفائه ولونه، وليس فيه ما يؤذي شاربه الذي يشرب منه.

ثم يخبر الله تعالى عن العين التي هي أصل لهذا الكأس المملوء منها. فقال تبارك وتعالى ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ فإنها عين دائمة، يشرب بها عباد الله تعالى، الذين هم أهل الجنة ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أي: أنها عين دائمة الجريان والتدفق، فيتصرف فيها عباد الله تعالى كيف شاءوا وأرادوا ﴿ يُفَجِّرُونَهَا ﴾ أي: يجرونها ويتصرفون في توجيهها. كما أفادت دلالة ﴿ تَفْجِيرًا ﴾ المبالغة في التمكن بما منحهم الله تعالى من ذلك، وفي ذلك دلالة على كمال التنعم والنعيم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: يتصرفون فيها حيث شاءوا، من قصورهم ودورهم، ومجالسهم، ومحالهم وبساتينهم، والتفجير هو الإنباع. وقال مجاهد: يقودونها حيث شاءوا[٢] مما يبين ويُظهر عظمة الإنعام لعباد الله الأبرار. وفي هذا حث واطماع للعباد على الطاعة، واختيار الجنة، خير لهم من إيثار المعصية التي تؤدي إلى الحرمان من هذا النعيم، ودخول النار الأبدي.

ثم يخبر الله تعالى بمواصفات عبادة الأبرار الذين يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. فقال تعالى ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ فإنهم متعبدون لربهم سبحانه وتعالى إلى حد الوفاء بما أوجبوه على أنفسهم من النذور. والنذر هو كل ما يُنشئه ويُوجبه العبد على نفسه، من النذور والعهود. كما ورد في سورة مريم ﴿ فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ أي: أوجبت على نفسي لله تعالى أن لا أكلم اليوم أحداً من الناس تعبداً لله تعالى، أي: اشتغالاً بعبادة الله عَزَّ وجل.

ومن أعمال أولئك الأبرار في الدنيا أنهم يخافون يوم القيامة ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ فيخافون ويهابون يوم القيامة، ومن شر ما فيه. وقد وصف الله تعالى شره بأنه كثير الانتشار والاتساع ﴿ كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ أي: متسعاً، يستوفي كل من استحق ذلك. بما يفيد قوة المبالغة في قوة عذاب ذلك اليوم. فخاف هؤلاء الأبرار من أن ينالهم ذلك العذاب أو شيئاً منه. مما يفيد أنهم جمعوا بين الرجاء وبين الخوف،

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٣٨/٢٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٨٤/٤)

فأوجب الرجاء والخوف الطاعة والامتثال لدين الله تعالى. مما يبين للعباد المسلك الذي يسلكه الأبرار في الدنيا لمن أراد الفوز بالجنة.

ومن دقائق البيان أن ورد الوفاء، وكذلك الخوف بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴾ ليفيد أنهم كانوا مستمرين على ذلك من غير انقطاع طيلة حياتهم الدنيا.

ومن مزيد أوصافهم التي كان عليها الأبرار أنهم ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴾ فقد كانوا مواظبين على إطعام الطعام لغيرهم بالرغم من شدة حبهم للمال كغيرهم من الناس، فإنهم ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ أي: على شدة حبهم للمال فإنه لم يمنعهم ذلك أن يُطعموا منه غيرهم، بل يبذلونه في سبيل الله تعالى، فيطعمون منه مستحقيه، وهم ﴿ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴾ فهم ثلاثة أصناف على وجه التخصيص: أحدها ﴿ مِسۡكِينٗا ﴾ والمساكين هم: المحتاجون من عباد الله تعالى، لفقرهم. مما يبين أهمية الإنفاق على المساكين. وأن لهم حقوقاً على غيرهم. كما أفاد هذا البيان العظيم عناية الله تعالى بالمساكين، التي قد فرضها على أهل اليسار. كما يدل هذا الحق للمساكين، والتنويه به على عظمته وأهمية أن يوليه المؤمن عنايته. إذ به يحصل التواد والترابط الاجتماعي، وأن الله تعالى يبتلي ويختبر أهل اليسار بما أنعم عليهم. وأن التفضل على المساكين حق يلزم القيام.

ثم ذكر تبارك وتعالى النوع الثاني: وهو اليتيم ﴿ وَيَتِيمٗا ﴾ واليتيم هو الذي فقد أبوه، ولم يبلغ الحلم، ولا شيء له. مما يبين عناية الله تعالى باليتيم، وسد حاجته، كما قال صلى الله عليه وسلم (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وقال بأصبعيه السبابة والوسطى) [١] وفي هذا ما يبين أن مما يتقرب به المقربون الأبرار إلى الله تعالى هو إطعام اليتيم.

وأما الصنف الثالث: فهو ﴿ وَأَسِيرًا ﴾ وهو المحبوس. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وهو الحربي من أهل دار الحرب، يُؤخذ قهراً بالغلبة، يُؤخذ فيحبس بحق، فأثنى الله تعالى على هؤلاء الأبرار، بإطعام هؤلاء تقرباً بذلك إلى الله تعالى، وطلب رضاه، ورحمة منهم لهم[٢] فبالرغم من أنه أسير حرب، قد رفع السلاح عليهم، إلا أنه في حالة الأسر، يكون له حق الإطعام والرعاية. مما يبين مكارم أخلاق الإسلام،

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٦٠٠٥)

(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٥٤٣-٥٤٤)

حتى مع من حمل السلاح على المؤمنين في الحرب. كما يبين رحمة الله تعالى بهؤلاء، والذي انعكس على الأبرار في تعاملهم. مما يبين ويفيد أن منهج الإسلام يربي في أتباعه مشاعر الخير، ومكارم الأخلاق، والعطف، والتراحم.

ثم يخبر الله تعالى عن أن سبب قيام الأبرار بالإطعام، هو الإخلاص لله تعالى في ذلك الأمر، وليس لأمر آخر غير طاعة ربهم سبحانه وتعالى. فقال عَزَّ وجل عنهم ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ فإنهم يقولون: إنما نطعمكم إخلاصاً لله تعالى، وليس مرادنا من ذلك مكافأة منكم، وهو معنى ﴿ جَزَآءً ﴾ وكذلك لا نريد منكم أن تقدموا لنا الشكر ﴿ وَلَا شُكُورًا ﴾ أي: مدحاً وثناءً، أو أن تذكروه لغيركم على سبيل المدح، بل حصروا ذلك بحرف ﴿ إِنَّمَا ﴾ الذي أفاد حصر العمل من الإطعام لهؤلاء بأنه ﴿ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ تعالى فقط، فالجزاء المراد كائن من الله عَزَّ وجل، وليس من غيرهم لهم. مما يبين شرط الإخلاص في العمل، لا للرياء، ولا للسمعة، ولا لتحصيل مكافأة على ذلك. مما يربي في المؤمن الإخلاص وابتغاء الفضل منه جَلَّ جلاله.

ثم يزداد التعليل والبيان لمقصدهم من الإطعام ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ فإنما نقوم به من الإطعام هو إخلاصاً لله تعالى، لأننا نخاف من ربنا من ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة. فإنه ﴿ يَوْمًا عَبُوسًا ﴾ أي: تعبس فيه الوجوه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ المقبض بين عينيه[١] فتتقطب ذلك اليوم جباه الكفرة. قال ابن سعيد بن جبير، وقتادة رحمهم الله تعالى: تعبس فيه الوجوه من الهول ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ هو: تقليص الجبين، وما بين العينين من الهول[٢] مما يبين شدة هول ذلك اليوم، الذي يعملون من أجله، حتى لا يحصل لهم ما يحصل للكفار. مما يبين أن في إدراك المؤمن لأحوال يوم القيامة، يجعله يبذل غايته في طاعة الله تعالى بكل ما يستطيع. فبالرغم من حبه للمال مثل غيره إلا أنه يسترخصه في طاعة الله تعالى.

ثم يخبر عَزَّ وجل عن مكافأته للأبرار، وحُسن الجزاء لهم يوم القيامة، فقال تبارك وتعالى ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ فأكرمهم ربهم عَزَّ وجل بأن جعلهم في ذلك اليوم في أمن ووقاية

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٤٧/٢٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٨٤/٤)

من شره، وأعطاهم بدل العبوس الذي هو للكفار نضارة ونقاء، من الحسن والبهاء والسرور والفرح بما هم فيه، وما هم مقبلين عليه من الجزاء الذي سيكون لهم، وهو الجنة، فقال تعالى ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ وأثابهم ربهم عَزَّ وجل بكرمه على ما كان منهم من الطاعة، والصبر على الامتثال وعن المعصية، وغرور الدنيا، والصبر على مجاهدة النفس ﴿ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ فأدخلهم الجنة، وألبسهم الحرير. كما قال تعالى في سورة فاطر ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ حرير من استبرق، أخضر، ومن سندس. وتحت كل أصل من تلك الأصول أنواعاً شتى، لا تُعد ولا تحصى. والحرير لباس أهل الجنة. مما يبين عظيم مكافأة الله تعالى لمن خاف مقام ربه، فأطاعه، وامتثل لشرعه.

ثم يصف اللهُ تعالى لعباده هيئة وصفة جلوس أهل الجنة، وما يرونه من النعيم، وما يحتجب عنهم من كل شيء ينغص عليهم سرورهم. فقال تعالى عنهم ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴾ فإن أهل الجنة يجلسون على سرر ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ ﴾ والاتكاء يعطي وصفاً دقيقاً لحالهم من التنعم ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ ﴾ والأرائك: أريكة. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وغيرهم رحمهم الله تعالى: الأرائك هي السرر[1] وقيل عن الأسرة: أنها في غاية من الروعة والبهجة، إذ تتحول في الاتجاه كيفما أرادوا. قال مجاهد وغيره، رحمهم الله تعالى: وقيل: الأَسرَّة تدور كيفما شاءوا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: على سُرُر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر[2] فمن مزايا تكريمهم أنهم يجلسون على سرر مرتفعة، وهم متقابلون يتحدثون ويستأنسون بنعيم الاجتماع. فجميع أهلها بين سعادة النفس بالاتكاء، وبين سعادة الاجتماع بغيرهم من أهل الجنة. فهم متقابلون فيما بينهم.

ومن مزايا الجنة ما ذكره عَزَّ وجل بقوله الكريم ﴿ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا ﴾ فلا يرون شمساً يتأذون بحرارتها ﴿ وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴾ وهو البرد الشديد. مما يبين عظيم نعيم الجنة، وعظيم ما فيها من كل وجه، فهي سعادة لا يعتريها كدر ولا نصب، ولا غم ولا هَم، ولا تعب. مما يفيد ويبين أن الله تعالى يدعو ويُرَغِّب عباده في الطاعة للفوز بالجنة والنجاة من النار، وهذا من رحمته سبحانه وتعالى، فهو الرحمن الرحيم.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٨٢/٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٣/١٠)

ثم يزيد الله تعالى في وصف الجنة، وذلك ببيان أغصانها وظلالها، وفواكهها التي هي في متناول اليد، فقال تعالى ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ فظلال أشجارها قريبة منهم، لأنها ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ وبالتالي فإن ثمار الجنة ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ قريبة ممن يتناولها، حيث قال عَزَّ وجل ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ فَأُدْنِيت الثمار التي هي ما يقطفه أهل الجنة من أشجارها، فلا يحتاجون إلى أي وسيلة حتى يقطفون بها ما يريدون قطفه، بل في متناول اليد. فيتناولون ما يشاؤون من ثمارها بمجرد القطف لها، فلا عناء في قطفها. فهي مذللة كيف شاءوا. فيتناولونها قياماً وقعوداً، ومتكئين. مما يبين كمال السعادة حتى فيما يشتهيه أهل الجنة. اللهم نسألك أن تجعلنا والمسلمين أجمعين من أهل الجنة، الفائزين بها، برحمتك وفضلك يا رب العالمين.

ومن دقائق البيان أن تم نعت ووصف الثمار بدلالة القطف ﴿ قُطُوفُهَا ﴾ التي تمثل كل مقطوف، من العناقيد وغيرها، لتستوفي جميع الثمار. وكذلك من دقائق البيان أن وُصِفَت بالتذليل ﴿ وَذُلِّلَتْ ﴾ بما يُعطي معنى التيسير بتطويعها لهم، فلا يجدون ما يصعب به القطف. كما ورد التذليل بصيغة التأكيد والمبالغة، فقد ذُللت ﴿ تَذْلِيلًا ﴾ ليفيد كمال التذليل لأهل الجنة، بحيث يمتنع العناء في القطف والتناول.

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

ويستمر الوصف من الله تعالى لنعيم أهل الجنة، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴾ ويدور عليهم بما يشتهون من المأكولات والمشروبات في آنية من فضة، فجمعت بين بياض الفضة، وصفاء الزجاج. وقد أفادت دلالة الطواف عليهم: أنهم يترددون عليهم بما يشتهون ﴿ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ ﴾ أي: أن الآنية التي توضع فيها الأشياء، ليتم تناولها، وتداولها، هي من معدن الفضة. كما يُدَار عليهم أيضاً بالأكواب من الأشربة ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ وهو جمع كوب، وهي الكؤوس التي لا عُرى لها، فتكون من أفخر وأحسن ما تكون الأكواب ﴿ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: آنية من فضة، وصفاؤها

وتهيئها كصفاء القوارير[١] فلها بياض الفضة، وصفاء الزجاج. وقد وردت الآنية والأكواب بصيغة الجمع، ليفيد تعددها وكثرتها، وتنوع ما فيها من الأطعمة والأشربة.

ثم يزداد الوصف إيضاحاً للقوارير، فقال الله تعالى عنها ﴿ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ أي: أن القوارير في بياض الفضة، وصفاء الزجاج ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ أي: أن محتواها لا ينقص عن إرادة الشارب، ولا يزيد عنه، فهي مقدره تقديراً دقيقاً. فلا يفيض منها شيء، ولا يحتاج شاربها إلى المزيد منها. ومن دقة ذلك أن ورد البيان بالمفعول المطلق للتقدير ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ فأعطت ﴿ تَقْدِيرًا ﴾ التأكيد للتقدير بالوفاء الذي لا يزيد منه، ولا يحتاج إلى المزيد منه، لإفادة كمال الوفاء والاستيفاء. مما يبين عظمة التدبير من الله تعالى، وعظمة السعادة لأهل الجنة.

ومن مشروبات أهل الجنة أيضاً: الزنجبيل، إذ تُقَدَّم لهم كؤوس من هذا المشروب. قال تعالى ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ ويُسقون أهل الجنة أيضاً كأساً ﴿كَانَ مِزَاجُهَا ﴾ أي: طعمها ﴿ زَنجَبِيلًا ﴾ وبلا شك أن الاتفاق بينه وبين زنجبيل الدنيا هو الاسم فقط، وإلا فإن زنجبيل الجنة لا يدانيه زنجبيل الدنيا أبداً.

ثم يذكر تبارك وتعالى مشروباً آخر، فقال عَزَّ وجل ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ وعين تنبع في الجنة ﴿ تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ فَسُمِّيت بذلك؛ لسلاسة مائها، ولذة طعمه. والسلسبيل هو الشراب اللذيذ. قال القرطبي رحمه الله تعالى: تقول العرب: هذا شراب سلس، وسلسال، وسلسل، وسلسبيل، بمعنى: طيب الطعم، لذيذ[٢] وهو السهل لصفائه وعذوبته. بما يفيد تنوع المشروبات في الجنة، وكثرتها.

ثم يخبر الله تعالى بمن يقوم بخدمة أهل الجنة، فقال تعالى ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ فيدور ويتنقل بين أهل الجنة من يقوم بخدمتهم. فإن دلالة الطواف عليهم ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ تبين وتوضح: أن من يخدمهم يترددون عليهم بما يشتهون، وأن صفات الذين يقومون بخدمتهم أنهم ﴿ وِلْدَٰنٌ ﴾ أي: فتية ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ فهم مخلدون للبقاء، فلا يتغيرون، بما يفيد الثبات، مع أهل الجنة، فليس

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٥٥/٢٣)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٣/١٩)

لذلك نهاية أبداً، ولا يتطاول بهم الزمن، بل ثابتون على ما هم عليه من الوصف والخدمة. فهم خاصين ومخصوصين بخدمتهم. ثم يخبر سبحانه وتعالى عن كثرتهم وعن جمالهم، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أي: يتلألؤون منتثرين، ومنتشرين، كاللؤلؤ الذي انتثر من نظمه الذي كان منظوماً ومنتظماً فيه.

وقد ورد في سورة الطور ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ ليتبين تعدد وصفهم. أي: قد بلغوا من جمالهم ونظافتهم، وجميل ترتيبهم في هيئتهم وزينتهم أنهم مثل اللؤلؤ المصون المنتشر بينهم لخدمتهم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: كأنهم لؤلؤ في بياضهم وصفائهم. وعن قتادة: ذُكِر لنا أن رجلاً قال: يا نبي الله، هذا الخادم، فكيف بالمخدوم؟ قال (والذي نفس محمد بيده، إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب)[1] وكذلك من كثرتهم وجمالهم ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ فنظرت إليهم ﴿ حَسِبْتَهُمْ ﴾ أي: اعتقدت وظننت من كثرتهم وجمالهم وبياضهم أنهم ﴿ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أي: اعتقدت أنهم لؤلؤ منتثر. فهم يتلألؤون منتثرين، ومنتشرين، كاللؤلؤ الذي انتثر من نظمه الذي كان منظوماً ومنتظماً فيه. مما يبين الكثرة مع كمال الجمال والتألق الذي لا يضاهيه شيء، ولا يمكن أن يتصوره أهل الدنيا كما هو في الآخرة، إلا الوصف والنعت فقط. اللهم إنَّا نسألك وأهلينا الجنة أجمعين، وإخواننا المسلمين يا رب العالمين، بمنِّكَ وفضلك وكرمك يا رب العالمين.

ثم يخبر الله تعالى عن عظيم نعيم الجنة على وجه العموم، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ وإذا رأيت أيها الناظر ببصرك في الجنة ﴿ ثَمَّ رَأَيْتَ ﴾ أي: رأيت هناك في الجنة ﴿ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ فهي إشارة إلى المكان الذي هو الجنة. ﴿ رَأَيْتَ ﴾ أي: شاهدت، مشاهداً لا تنقطع من النعيم ﴿ نَعِيمًا ﴾ أي: إنعاماً ونعماً، وأيضاً ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ واسعاً وعظيماً، من القصور والخدم، وحور العين، والبساتين، والأنهار الجارية، والطيور المغردة، بما يأسر القلوب نوعاً وعظمة. بما يفيد: يا أيها الإنسان لا تخسر هذا النعيم وتفقده بعدم الطاعة والامتثال لربك، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فاتبعوا ما جاءكم من الهدى والحق. فإنها دعوة من الله تعالى، واطماع منه لكم بأسلوب البيان والإخبار والإعلام بالحقائق. ومن محفزات ذلك التشبيه بالملك ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ الذي تتصرف فيه بما تشاء.

ثم يخبر الله تعالى بأوصاف من يخدمون الأبرار الذين هم أهل الجنة، فيقول عَزَّ وجل ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ يطوف على أهل الجنة

[1] الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٥٨٩)

ولدان يلبسون ثياباً من ﴿سُندُسٍ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ثياب رفاع رقاق، كالقمصان وما جرى مجراها، وأما ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي: غليظ الديباج، وفيه بريق[١] قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: السندس: الديباج الرقيق. والاستبرق الديباج الغليظ[٢] فيلبسون أفخم الثياب وأجملها نوعاً وشكلاً وجمالاً.

وأيضاً مزينون بكمال الزينة، قال تعالى ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وزُينُوا بالْحُلِي من الأساور التي من فئة الفضة. وقد ورد في سورة الكهف ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وكذلك في سورة فاطر ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ فيتجملون بأحسن الزينة، وأكملها منظراً وجمالاً، فيلبسون من الحلي أساور من ذهب. قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: يُحَلَّى كل واحد منهم بثلاثة من الأساور، واحد من فضة، وواحد من ذهب، وواحد من لؤلؤ ويواقيت[٣] فيتجملون بأحسن الزينة، وأكملها منظراً وجمالاً.

ومن مزيد الإنعام أن أهل الجنة يشربون مياهاً قد وُصِفَت بأكمل الأوصاف فقال جَلَّ شأنه ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ فإن من كمال طهره أنه لا يصير بولاً نجساً، ولكنه يصير رشحاً من أبدانهم كرشح المسك[٤] مما يبين أن الجنة وحال أهل الجنة لا يقاس بأهل الأرض، فإن الخالق تبارك وتعالى يدبر عباده في الجنة بأكمل التدبير الذي تظهر به السعادة على أهلها من كل جانب، وأنها حياة ليس هناك أحسن منها. فنسأل الله تعالى بفضله وكرمه أن يرزقنا والمسلمين الجنة، من غير حساب ولا سابقة عذاب، إنه هو الرحمن الغفور الرحيم.

ثم يُقال لأهل الجنة ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ إن هذا النعيم من الملك الدائم العظيم جزاء لما كان من سعيكم في طاعة ربكم، وابتغاء فضله ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ فقد كان عملكم في الدنيا من الامتثال والطاعة لربكم مقبولاً، ومرضياً عنه، وفي دلالة الشكر ما يفيد معنى القبول للطاعة التي كان عليها العبد في الدنيا. فالشكر هي المكافأة التي تبين الثناء عليهم من الله سبحانه وتعالى.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٨٧/٣)
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٤٢/١٢)
(٣)ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٩٦/٥)
(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٦٩/٢٣)

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ
ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ
أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾

وبعد البيان العظيم عن أحوال الآخرة ينتقل التوجيه الكريم من الله العظيم إلى شأن أحوال الدنيا، فبدأ السياق بعظيم الامتنان على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى جميع العباد بما أنزله من القرآن العظيم، فقال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴾ نحن الذين نزلنا عليك القرآن تنزلاً من لدنا، بما ينفي بهذا الإثبات الجليل كل دعوة باطلة، فلم يكن هذا القرآن من تلقاء نفسك أيها الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم. وفي هذا تزكية للقرآن العظيم، وللرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد أورد الله تعالى هذا الإعلام من البيان العظيم بالكثير من التعظيم، فقد استهل البيان بنون التوكيد الملتصقة والمقترنة بضمير المتكلم ﴿ إِنَّا ﴾ وهو الله تبارك وتعالى، ثم أعقبه أيضاً بضمير المتكلم ﴿ نَحْنُ ﴾ فقال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ ليفيد التعظيم والتبجيل والقوة والسلطان، وكمال القدرة، ثم كرر ضمير المتكلم للمرة الثالثة: في شأن التنزيل ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ فأكد التنزيل أنه له جَلَّ جلاله. والذي أفاد التفخيم والتبجيل والعظمة والتعظيم، فهي ثلاث مؤكدات ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ﴾ تأكيد على تأكيد على تأكيد، لإظهار عظمة ما أنزله تبارك وتعالى، ووجوب الاهتمام بالخبر مع التزكية لِمَا أنزل عَزَّ وجل، ولمن أنزله عليه صلى الله عليه وسلم.

وقد أعطى البيان قصر التنزيل عليه سبحانه وتعالى، ثم حصر عَزَّ وجل مَنْ أُنْزِل عليه، فقال جَلَّ شأنه ﴿ عَلَيْكَ ﴾ أي: عليك أنت أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ﴾ فقد أنزلناه نحن على الرسول عليه الصلاة والسلام. وقد أفادت دلالة ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ العلو والارتفاع مكاناً ومكانة وعظمة لقدرة لله تعالى، كما أفاد التوكيد والمبالغة. كما دلت على تضعيف الإنزال، لإفادة تعدد مرات التنزيل، فقد جعلنا نزوله مُفَصَّلاً؛ ولم ننزله جملة واحدة. وقال القرطبي رحمه الله تعالى: وإتمام التضعيف يؤذن بقوة الفعل في كيفيته

أو كميته[١] مما يدل على دقة البيان التي ظهرت حتى في هيئة ألفاظه، لتعطي المراد بأدق ما يكون، وما يتحقق به المقصد والمراد.

ومن الفوائد اللفظية في قوله تعالى عن نزول القرآن الكريم ﴿نَزَّلْنَا﴾ ولم يقل ﴿وَأَنزَلَ﴾ كما تم ذكر ذلك في سورة آل عمران، أنه تبارك وتعالى قال عن نزول القرآن الكريم ﴿نَزَّلَ﴾ بينما عن التوراة والإنجيل قال تعالى ﴿وَأَنزَلَ﴾ وهذا من الإعجاز البياني، لأن لفظة ﴿نَزَّلَ﴾ تفيد التتابع في النزول، مرة بعد مرة، بينما ﴿وَأَنزَلَ﴾ كما في قوله تعالى ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ تفيد النزول دفعة واحدة.[٢] لأن القرآن الكريم نزل مفرقاً، ومتتابعاً خلال زمن بعثته صلى الله عليه وسلم. مما يبين عظمة دلالة اللفظ في القرآن وإعجازه البياني والبلاغي. الذي يؤكد أنه كلام الله تعالى.

ثم عَيَّن وحدد تبارك وتعالى الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم، بأنه القرآن العظيم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وقد أكد ذلك التنزيل بقوله عَزَّ وجل ﴿تَنزِيلًا﴾ التي أفادت تأكيد ﴿نَزَّلْنَا﴾ في قوله جَلَّ جلاله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ لإفادة إثبات التنزيل للقرآن الكريم أنه من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم، ونفي جميع الأقاويل التي قيلت من أعداء الدين، من أنه شعر، وأنه سحر، وأنه يؤثر عن غيره، وأنه من أساطير الأولين. ليثبت بهذا أنه مُنَزَّلٌ منه عَزَّ وجل، وأنه صلى الله وسلم مُنَزَّه عن جميع الطعون التي قالها عليه المتقولون.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى الصبر. فيقول عَزَّ وجل ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ فاصبر أيها النبي على قضاء ربك الذي قد قضى وحكم به ﴿فَٱصْبِرْ﴾ والصبر كما قال ابن قيم الجوزية: نقيض الجزع، وهو حبس النفس عن الجزع، والتصبر، وتَكَلُّف الصبر. وقال عمر بن عثمان المكي: هو: الثبات مع الله، وتَلَقِّي بلائه بالرحب والدعة[٣] وأما موطن الصبر وعلته فهو ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: ما قضى وحكم به سبحانه وتعالى، مما كلفك به من مهمة شرف الرسالة، وما تكابده

---

(١) القرطبي، اجامع لأحكام القرآن (٤/٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/٢٩٩) والقرطبي، اجامع لأحكام القرآن (٤/٥)

(٣) ابن قيم الجوزية، عدة الصابرين (١٧)

مع من تدعوهم، وما سيحكم الله تعالى به لك وعليهم. وهو النصر والظفر للرسول صلى الله عليه وسلم، والجنة في الآخرة، والهزيمة لأهل الكفر، والنار في الآخرة. مما يعلم المؤمن والداعية والمرشد والناصح والمعلم أن يصبر على صعوبة مهنته، وعلى مناكفة غيره له، حتى يحكم الله تعالى بما يقضيه من الظفر والفوز والنجاح، وعظيم الأجر والثواب.

ثم أعقب الأمر بالصبر النهي عن مطاوعة أهل الكفر والإثم. فقال الله تعالى ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي: ولا تستجب ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ من المشركين، أي: فلا تُطع أحداً منهم، مُتصفاً بأنه ﴿ءَاثِمًا﴾ وهو المبالغ في ارتكاب الآثام التي هي المحرمات ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ مبالغ في كفره، فقد أفادت دلالة ﴿كَفُورًا﴾ أنه المبالغ في كفره، إلى درجة وحالة المعاند، والصاد، والمحارب، كما أفاد حرف ﴿أَوْ﴾ أنهما صنفان: الآثم، وهو المبالغ في ارتكاب المحرمات، والكفور: المبالغ في كفره. وهذا النهي من الله تعالى بسبب وعلة تعامله صلى الله عليه وسلم معهم، حيث يقابلهم، ويتكلم معهم، ويتكلمون معه عليه الصلاة والسلام. وأنهم يريدون منه ما يحبون وما يحلوا لهم، ولذلك ورد في تفسيرها أعيان من المشركين: أبو جهل. وأنهما صفتان لأبي جهل. وقيل: أن الآثم عتبة بن ربيعة، والكفور: الوليد بن المغيرة. وقيل: الآثم: الوليد. والكفور: عتبة. وذلك أنهما قالا له: ارجع عن هذا الأمر، ونحن نرضيك بالمال، والتزويج[1] مما يبين ما كان يواجه صلى الله عليه وسلم من المشركين.

وهذه قاعدة توجيهية للمؤمنين في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، لتكون منهجاً في عدم طاعة من اتصف بالإثم ﴿ءَاثِمًا﴾ أو اتصف بكونه ﴿كَفُورًا﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في معناها: ولا تطع في معصية الله تعالى من مشركي قومك ﴿ءَاثِمًا﴾ أي يريد: بركوبه معاصيه ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ يعني جحوداً لنعمه وآلائه قِبَلَه، فهو يكفر به، ويعبد غيره[2] فهو تشخيص لفجورهم، بما يفيد أنهم متحدون في الكفر، ولكن مختلفين فيما هم عليه. فبعظهم ﴿ءَاثِمًا﴾ أي: مرتكب وممارس لأشد الآثام في نفسه ومع غيره، والنوع الثاني: المبالغ في كفره، إلى حد أنه يريد إطفاء نور الله تعالى. مما يفيد ويدل على قوة دلالة الوصفين، وهم الأعيان منهم، وكذلك كل من سلك مسلكهم. فأفاد ذلك البيان التحذير من هذين الصنفين، من أجل التباعد عنهم، لأنه لا أمل في إسلامهم، ولا فائدة في التفاوض معهم. مما يبين دقة التوجيه، وأهمية التنبيه لمن يتولى الأمور،

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥١/٨)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٧٢/٢٣)

حتى لا تغلبه حُسن نيته فيمن لا رجاء في إسلامه. فجميع طروحات الآثم في شهواته الآثمة، والكفور يسعى لإسقاط الدين، وليس غير ذلك.

ثم يوجه الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بكثرة ذكره جَلَّ جلاله، والمؤمنون تبعاً له عليه الصلاة والسلام، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ أي: وداوم واستمر صباحاً ومساءً على التسبيح والتهليل والتكبير. بما يفيد المبالغة في ذلك، ولتشمل جميع الأوقات، وخاصة في ذلك الوقتين. وبمعنى: نَزِّهُوا ربكم بكثرة الذكر من التسبيح والتمجيد عما لا يليق به وخاصة ﴿ بُكۡرَةٗ ﴾ الذي هو: أول النهار ﴿ وَأَصِيلٗا ﴾ الذي هو: آخر النهار. ويدخل في ذلك الصلوات المكتوبة، والنوافل وَنَزِّهُوا ربكم بالصلاة والتسبيح والتمجيد عما لا يليق به. مما يبين أهمية كثرة ذكر الله تعالى، والمداومة على ذلك، وخاصة في أول النهار، وآخره.

ثم بعد أن ذكر تبارك وتعالى الحث لعبادة على الذكر بالنهار، يحثهم أيضاً على الليل، فقال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴾ وخذ من الليل وقتاً طويلاً، وأكثر فيه من الصلاة، والتسبيح. وقد ورد ذكر الصلاة من خلال صفة السجود ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ ﴾ فخص السجود لأنه أعظم أركان الصلاة، لِمَا فيه من التذلل لله تعالى، ولذلك فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد. كما ورد في الحديث.

ومن دقائق التوجيه الكريم، قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ أي: جزءً من الليل، فاملأه واشتغل بالسجود التي هي الصلاة، وبالتسبيح الذي هو الذكر. ووصف الزمن المستغرق لهذه العبادة بأنه ﴿ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴾ أي: ليس بالوقت القليل. ولم يحصره في ساعات معينة كما في سورة المزمل. بل وسَّع تبارك وتعالى في ذلك، مع التنويه والحث بأنه ﴿ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴾ بل ومن دقائق السياق الكريم أن حصر البيان عبادة السجود التي هي الصلاة، والتسبيح بين الوقت وطوله. بين الوقت الذي هو ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ وبين زمنه المطلوب، وهو ﴿ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴾ مما يبين قوة الإعجاز البياني في تراكيب ألفاظ سياق القرآن الكريم. كما يفيد ذلك أهمية العناية بالصلاة والذكر في الليل، وأن واجب المسلم العناية بهذا الأمر عناية فائقة كما أمر الله تعالى بها في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو القدوة والأسوة، وفي الأمر له صلى الله عليه وسلم بذلك ما يفيد تعظيم المأمور به، من الصلاة والتسبيح والذكر. والمؤمنون يقتدون به عليه الصلاة والسلام.

ثم يحث الله تعالى المؤمنين على ما أمرهم به من دينه، وعلى كمال الطاعة من خلال بيان حال الكافرين الذين آثروا الدنيا على الآخرة، فقال الله تعالى ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ إن هؤلاء الكفرة الصادين عن دين ربهم، إنما دفعهم لذلك هو إيثارهم محبة الدنيا على الآخرة، فقد أغرتهم شهواتها، وما هم فيه من الباطل. وأما شأنهم مع الآخرة فإنهم ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ أي: تاركين ما هم قادمون عليه، وهو يوم القيامة. والذي اتصف بأنه ﴿ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ أي: عسيراً شديداً. بما يفيد: أن تركهم للإيمان والعمل بطاعة الله تعالى، جعلهم يتجاهلون ذلك اليوم الثقيل عليهم، الذي هو يوم القيامة.

وقد سَمَّى الله تعالى الدنيا بالعاجلة ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ فسماها بما اتصفت به من سرعة انقضائها. سواء انقضاء الأفراد بالموت، أو انقضاء الدنيا بيوم القيامة. فاستوعبت العاجلة كلا المعنيين. فكل مولود فيها سرعان ما يكبر، وسرعان ما تنتهي حياته في إحدى أطوار نموه. فكأنه ما عاش فيها إلا قليلاً، لسرعة انقضاء الآجال فيها. وكذلك ستمضي الأيام بعمر الدنيا الذي سينقضي وينتهي عاجلاً بيوم القيامة.

وقد سَمَّى الله تعالى يوم القيامة بأنه ﴿ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ يوماً عسيراً، وذلك تحذيراً وبياناً من أنه يوماً مهولاً على الكافرين، بل وصفه بحالة وصفة الثِّقَل. لبيان شدة وطأته على الكافرين، فهو بمثابة الثقل الذي اعتلى على الكافرين من أهواله التي يرونها، والمآل من العذاب الدائم في نار الجحيم والسعير. فنسأل الله تعالى السلامة، والفوز بالجنة والنجاة من النار، وجميع المسلمين. مما يفيد التحذير والتنبيه الذي يبين لطف الله تعالى ورحمته بهذا البيان للناس جميعاً، ليحذروا مما هم قادمون عليه.

ثم يخبر الله تعالى بدلائل ربوبيته وألوهيته، ووجوب عبادته وحده لا شريك له، فيقول عَزَّ وجل ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ نحن خلقنا هؤلاء الذين يفضلون ويؤثرون العاجلة على الآخرة، كما خلق غيرهم من المؤمنين، فهو تقرير بوحدة الخلق، بأن الله تعالى هو الذي خلقهم، كما خلق غيرهم. ثم يخبر تبارك وتعالى بأنه لو شاء أهلكهم وأبدل بهم خيراً وأحسن منهم، طاعة لربهم عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ بما يبين كمال قدرته تبارك وتعالى، وفي هذا تهديد لهم، وكذلك تذكير لهم بنعمة الإيجاد لهم، والتي تتطلب وتستلزم أن يؤمنوا كما آمن غيرهم. وفي نفس الوقت يعطي هذا البيان الوعظ لهؤلاء الكفرة، بما أنعم عليهم ربهم من كمال خِلقتهم ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ إضافة إلى التهديد لهم من خلال إهلاكهم واستبدالهم بخير منهم ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ فاتعظوا وخافوا ربكم، وأطيعوا رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقد بدأ البيان الكريم بإظهار العظمة له عَزَّ وجل ﴿ نَّحْنُ ﴾ فأسند سبحانه وتعالى الخلق إليه بضمير التفخيم والتعظيم ﴿ نَّحْنُ ﴾ لإظهار عظمة المتكلم، الذي يتكلم في شأنهم، بأنه العظيم الذي لا ينُكرُ كلامه، وما يخبر به من الأمر والنهي، والتشريع ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَـٰهُمْ ﴾ نحن أوجدناهم. فكيف ينكرون ما جاءهم من ربهم الذي خلقهم؟ فيستنهض سبحانه وتعالى عقولهم للتدبر والتفكر بقوله عَزَّ وجل ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَـٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ وقد أظهر لهم ولغيرهم دقة التكوين بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ الذي هو قوة الإحكام لخلقهم. فَشَد الأسر هو: قوة الإحكام، وقوة وإتقان الخلق الذي ظهر لكم في بناء أجسامكم. قال أبو هريرة رضي الله عنه، أي: مفاصلهم. وعن الحسن: قال أوصالهم، بعضاً إلى بعض، بالعروق والعصب[١] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: الشد: الإحكام، وإتقان ارتباط أجزاء الجسد، بعضها ببعض، بواسطة العظام، والأعصاب، والعروق. وأما الأسر، فهو: الربط. وأُطلِق هنا على الإحكام والإتقان. والمعنى: أحكمنا ربط أجزاء أجسامهم، فكانت مشدوداً بعضها إلى بعض[٢] وفي هذا لفت الانتباه بهذا البيان الكريم إلى أن يتأملوا وغيرهم في بديع صنع الله تعالى لهذا الإنسان، الذي جعله في قوة من تماسك أجزائه: حين يمشي، وحين يجلس، وهو واقف. بل لو تأمل فيما احتواه داخله وخارجه لأدرك عظمة الله تعالى التي تستوجب منه توحيد ربه بالعبادة والطاعة، والامتثال لما جاء من الحق على رسوله صلى الله عليه وسلم.

وبما يفيد أن الذي خلقهم بهذه الهيئة والقدرة من القوة التي تمكنهم مما هم فيه من الحال فإنه لا يعجزه إعادتهم كما كانوا بعد الموت. بل ويزداد التقريع والتوبيخ والتهديد لهم، بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ وقد أكد البيان الكريم هذا التبديل بتكرار فعل التبديل بالمفعول المطلق، فقال تعالى ﴿ تَبْدِيلًا ﴾ ولو شئنا لأهلكنا هؤلاء الجاحدين المكذبين، وجئنا بمن يطيع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فيؤمنون ولا يكفرون.

وقد أظهر الله تعالى عظمته، وإسناد التدبير إليه بتكرار ضمير المتكلم له سبحانه وتعالى أربع مرات: فبدأ مطلع البيان بقوله سبحانه وتعالى ﴿ نَّحْنُ ﴾ ليفيد التعظيم والتبجيل، والقوة والسلطان والقهر. ثم كرر

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥١/٨)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٥١/١٢)

ضمير المتكلم في الخلق ﴿ خَلَقْنَٰهُمْ ﴾ ثم ضمير المتكلم الملتصق بالمشيئة ﴿ شِئْنَا ﴾ ثم تكراره أيضاً مع الإبدال ﴿ بَدَّلْنَآ ﴾ بما يفيد قوة السياق في إظهار ما يجب عليهم تجاه عظمة الخالق فيما خلق. فكما كان الخلق للإنسان متمثلاً بالقوة والترابط، فكذلك كان السياق الكريم، والبيان العظيم متماسكاً بقوة بيانه ووعظه وبلاغته، وقوة حجته. فكل شيء يشهد بوحدانية الله تعالى، ووجوب عبادته وحده لا شريك له، ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى أن الذي أوضحه وبينه لكم أيها المعاندون هو تذكرة واعظة لمن أراد أن يتخذ طريقاً إلى ربه، وإلى إنجائه من عذابه. فقال تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ إن ما سبق من البيان في هذه السورة آيات واعظات تُذَكِّر الإنسانَ بما يجب عليه ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ﴾ فقد أعطى اسم الإشارة ﴿ هَٰذِهِۦ ﴾ تنويه لِمَا تقدم من آيات السورة المباركة، وليفيد تعظيم ما ورد فيها. ومُؤَكِّداً ذلك بحرف التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ الذي سبقها، بأنه ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي: تُذَكِّر الإنسان بما يجب عليه من الطاعة والامتثال لله تعالى، وتبين له عواقب الكفر.

ثم بعد هذا البيان العظيم يعظهم الله تعالى بأسلوب الخيار، والمتاركة، بأن يترك لهم ما يختارونه، ويحاسبون على اختيارهم له. فقال تعالى ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ فمن أراد منكم أن يتخذ سبيلاً وطريقاً إلى طاعة ربه فهو الأولى وجوباً عليكم، فإن هذه التذكرة قد أوضحت وبينت لكم المسلك والطريق الصحيح، بالأدلة والبراهين.

وقد جعل الله تعالى لعباده اختيار الطاعة أو المعصية ﴿ فَمَن شَآءَ ﴾ حتى يُحاسب كل أحد بما اختار من الحق أو الباطل. ورجح لهم وحثهم على تخصيص اختيار السبيل والطريق الذي يتحقق لهم به النجاة، وهو طاعته جَلَّ جلاله، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ فمن شاء اتخذ السبيل والطريق الذي يتحقق لهم به النجاة. بما يفيد التحضيض والحث لهم على اختيار سبيل ربهم، لأنه الطريق الأفلح لهم. فهو طريق وسبيل الله سبحانه وتعالى المستقيم. فعليهم أن يُذعِنُوا لله ربهم عَزَّ وجل، ولرسوله صلى الله عليه وسلم فيما جاءهم به من الحق. وهذا من عدل الله تعالى، بل زاد عن العدل برحمته لهم، بأن وعظهم بكل وجه يُوصلهم إلى الحق والخير والنجاة، ويجنبهم العذاب. فالحمد لله رب العالمين على كريم فضله ووعظه.

ثم يتدرج البيان الكريم إلى إظهار قوة مشيئته التي هي فوق كل مشيئة، ومنها مشيئة الإنسان. فقال الله تعالى ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فليس لأحد مشيئة مستقلة

ومنفردة عن مشيئة الله تعالى. بما يفيد: أن الله تعالى لو شاء أن لا تكفروا، لجعلكم مؤمنين بقدرته وسلطانه وقهره، فلا تعتقدوا بكفركم أنكم خرجتم عن سلطان ربكم ومشيئته. فإنكم تحت قبضته. بما يصحح مفاهيم العباد عن المشيئة، لأن الله تعالى كامل المشيئة التي تقهر مشيئة العباد.

فقد جعل الله تبارك وتعالى بحكمته للإنسان مشيئة من الاختيار، وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر، وهذه المشيئة تحت مشيئة الله تعالى، فلا يعني ذلك أن الإنسان منفرد بها، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذي منحها للإنسان بمشيئته، ويمنعها بمشيئته. فيصحح سبحانه وتعالى مفاهيم عباده، ويعلمهم الحق وسبيله، حتى يعلموا ما يجب عليهم، وما هم عليه. وأن ذلك لا يعني أنهم خارجون عن مشيئته سبحانه وتعالى. كما يصحح بهذا البيان أفهام من حاد فهمه عن الصواب. وهذا من عظيم التدبير والحكمة والعدل من الله العزيز الحكيم. وفي سورة الشمس، قال تعالى ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ فعرفها وأفهمها بما يجعلها تدرك الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، حتى تتحمل مسؤولية ما يكون منها.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأن تدبيره هو عن علم وحكمة، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

فيخبر جَلَّ شأنه عن عظيم علمه وحكمته. وأفادت دلالة ﴿ عَلِيمًا ﴾ شمول وكمال العلم، بحيث لا تخفى على الله تعالى خافية. وسواء ما كان، أو ما سيكون. فهو سبحانه وتعالى عليم بما كان وما يكون، وما سيكون من عموم خلقه، ومنهم الإنسان. فأعطت دلالة ﴿ عَلِيمًا ﴾ شمول وكمال علمه عَزَّ وجل، بحيث لا تخفى على الله تعالى خافية سبحانه وتعالى. بل وردت بصيغة المبالغة، التي تفيد غاية العلم وكماله.

وأفادت دلالة ﴿ حَكِيمًا ﴾ إنه عَزَّ وجل هو الحكيم الذي له كمال الحكمة. أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، وكمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. وكذلك ربكم حكيم فيما يأمر به، وينهى عنه. فإن أمره ونهيه عن علم وحكمة، مما يستوجب الأخذ والتمسك به. وبالتالي فإن من كان له كمال العلم والحكمة، عرف ما كان وما سيكون منكم، ومن كل شيء.

ومن دقائق البيان الكريم أن ورد العليم والحكيم ﴿ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ بصيغة المبالغة التي تفيد امتداد المعنى إلى أقصى غايته وكماله. كما استهل البيان وابتدأ بحرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ الذي يؤكد ما بعده من بيان، ثم بحرف ﴿ كَانَ ﴾ الذي أفاد: أن الله تعالى عليم حكيم منذ الأزل، فهما صفتان عظيمتان جليلتان لله عَزَّ في علاه. ومن فوائد دلالة ﴿ كَانَ ﴾ أنها تعطي اتصال الزمن من غير انقطاع بعلمه وحكمته تبارك وتعالى، لتعطي معنى الإخبار عن الصفة الدائمة المستمرة التي لا تنقطع، سابقاً ولا لاحقاً.

ثم يختم الله سُبحانه وتعالى سورة الإنسان بتأكيد قوة مشيئته جَلَّ جلاله، فقال الرحمن الرحيم ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ فإن لله تعالى كمال المشيئة باختصاص من يشاء بعنايته ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ فيوفق من يشاء لدخول الجنة، بتيسير أسباب رحمته له. قال المفسرون: والرحمة ها هنا: الجنة ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هم الكفرة ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ أي: هيأ ورتب لهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ أي: عذاباً مؤلماً لهم في نفوسهم، وأجسادهم. وسماهم بالظالمين، لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر، وظلموا رسولهم بتكذيبه، وظلموا حجج الله تعالى بإنكارها، وظلموا غيرهم بأن أغووهم، وظلموا الناس بما كان منهم من البطر والأشر. فقد تحقق الظلم فيهم من كل وجه. مما يبين أن الله تعالى ليس بظلَّام لعباده، وأن كل واحد مرهون بما كسب. ونسأل الله تعالى أن يدخلنا والمسلمين في رحمته بفضله وكرمه.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الإنسان. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.